مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255/E-ISSN 2588-2414
المجلد09 العدد 02 – جوان 2022

OEB Univ. Publish. Co.

النسق الثقافي وخصوصيات التشكيل في الخطاب الروائي السير ذاتي

Cultural pattern and formation peculiarities in the autobiographical narrative discourse

د. حفيظة سوالمية *،
جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي الجزائر،
Hafidasoualmia04@gmail.com

تاريخ التسليم: 2022-02-02تاريخ التقييم: 2022-02-09 تاريخ القبول: 2022-04-16

الملخص

لقد فكر بعض الأدباء والمؤلفين في وصف الجو الثقافي الذي عاشوا فيه، والذي تميز به الجيل الذي ينتمون إليه، وهم بذلك حاولوا الكشف عن معطيات تتعلق أساسا بمسارهم الفكري والأدبي والثقافي، ورصد أهم تطورات الحركة الثقافية من خلال تجربتهم الخاصة في إطار تغير المسار الفكري وال ظواهر الثقافية بشكل عام.

لذلك فإن مؤلف رواية السيرة الذاتية لا يصرف نصه لوصف تكونه الجسدي ونشأة شخصيته نفسيا واجتماعيا فحسب، وإنما ينصب تركيزه أيضا على تجاربه الأدبية وتكونه الثقافي، متحدثا في ذلك عن سلسلة إخفاقاته ونجاحاته في هذا المجال على حد سواء.

الكلمات المفتاحية: النسق الثقافي، الخطاب الروائي، السرد المرجعي، السيرة الذاتية، التشكيل الفني.

Abstract

Some writers and authors thought about describing the cultural atmosphere where they live, and by which their generation they belong to was characterized. Accordingly, they tried to reveal data which are basically related to their intellectual, literary and cultural path, and monitor the development of cultural movement through their own experiences concerning changing the intellectual path and the cultural phenomena in general.

Thus, the autobiography author does not use his text to describe his physical formation, and the psychological and social upbringing of his personality only, but, he also focuses on his literary experiences and his cultural formation, talking about both his success and failure in this field.

Keywords : Cultural pattern, narrative discourse, Reference narration, Autobiography, artistic formation.

***المؤلف المراسل:حفيظة سوالمية، الإيميل: hafidasoualmia04@gmail.com**

1- مقدمة:

إنَّ الخطاب الأوتوبيوغرافي ليس مجرد نص مغلق على الذات يعرض تجربتها في نمطية وركون إلى الذاكرة، وإنَّما هو ممارسة أدبية تنطوي على مشروع في الحياة لم ينته في الماضي، ولكنه يطمح للتحقق في الحاضر والمستقبل، إنه خطاب مجابهة يسعى للتأثير في الأخر؛ ذلك أن غاية التشكيل الفني والإبداعي للنص الروائي السير ذاتي تبقى جوهريةً مهما تعددت أبعاد السيرة الذاتية ومراميها.

يهدف هذا المقال إذن إلى التنبيه إلى الدّور المؤثر لهذه الكتابة بالنظر إلى مدى جاذبيّتها من منظور التلقي، باعتبار النص مختبرها الفكري ورمزها الجمالي الذي يحول التجربة الشخصيّة من حوادث محدودة وقعت للكاتب في الماضي إلى تجربة وجودية، ومغامرة في الكتابة والتشكيل منفتحة على الحاضر والمستقبل .

1- النسق الثقافي والأدبي في السيرة الروائية:

انتشرت الروايات السير ذاتية ببعدها الثقافي والأدبي في المدونة الأوتوبيوغرافية العربية الحديثة بدأ من "الأيام" والتي ضمت مسيرة التكوين العلمي والفكري والثقافي لصاحبها طه حسين الذي توقف عند عديد العراقيل والصعوبات التي اعترضت سبيله لبلوغ أهدافه وتحقيق مشاريعه الفكرية والثقافية، كما نستشف من خلال سيرة فدوى طوقان الذاتية أن المؤلفة لم تكتف بسرد قصة كفاحها وخلاصة معاناتها ومعاناة شعبها مع الاحتلال الصهيوني، وإنما تضمن نصها أيضا قصة حلمها في أن تصبح شاعرة، يبلغ شعرها أقاصي الدنيا ويسمعه كل الناس، وأن تقرأ اسمها في المجلات المشهورة. وقد نجحت فدوى في رصد حركتها الثقافية ومسيرة تكوينها الأدبي بدقة ابتداء من حادثة حرمانها من المدرسة بعد أقل من أربع سنوات من التحاقها بها، ثم تولي أخيها إبراهيم مهمة تعليمها، لتتحمل هي مسؤولية تعليم نفسها بعد سفر أخيها، أين نشرت في هذه المرحلة أول قصيدة لها في جريدة "مرآة الشرق"، وواصلت بعدها تقدمها في مجال الشعر يساندها أخوها إبراهيم الذي لم ينقطع عن تشجيعها وتوجيهها.

وهكذا فإن الهاوية التي سقطت فيها فدوى طوقان بعد ما حرمت من الذهاب إلى المدرسة هي المنطلق والحافز لبناء شخصيتها الثقافية، فقد علمها أخوها إبراهيم أن العلم والثقافة لا يؤخذان من المدرسة فقط، بل يؤخذان من

الكتب أيضا لذلك أقبلت على القراءة بنهم شديد، ومن ذلك وجدت طريقا للخلاص من التفكير بأنوثتها التي بدأت تتفجر والتي دفعت الأسرة إلى سجنها داخل قفص الحريم، ورأت في حياتها الجديدة تلك سبيلا إلى السعادة والراحة والأمل (شاكر، 2002، ص 107).

تقول فدوى طوقان: « في استغراقي في عالمي الجديد، عرفت مذاق السعادة، كنت مستغرقة في عملية خلق نفسي، وبنائها من جديد، والبحث الطموح عن إمكانياتي، وقدراتي مما شكل ثروة وجودي» (طوقان، 1990، ص 76).

ولقد ذهب عديد النقاد إلى القول بأن السيرة الذاتية لفدوى طوقان "الرحلة الأصعب"« تعتبر سيرة ثقافية وأدبية بالدرجة الأولى، لأنها تتطرق فيها للموضوع من زاويتين؛ الأولى ترتبط بالشاعرة وشروط كتابة بعض قصائدها أو أثر الشعر على الحياة السياسية والعلاقات بين الفلسطينيين والمحتل. والثانية ترصد فيها حالة الحصار التي شملت الكتب والمجلات والصحف، وبالتالي الحديث عن نضوب معين الثقافة التي استهدفها الاحتلال» (المعتصم، 2007، ص 72).

ويظهر اهتمام مؤلفة "الرحلة الأصعب" بوضعية الأدب السيئة في الأراضي المحتلة من خلال حملها هذا الهم عندما تحدثت عن رحلتها الأولى التي قادتها إلى اللقاء بشاعر الشعراء محمود درويش وصديقه الشاعر سميح القاسم، لمناقشة تردي الأدب ووضعه المزري في فلسطين، وهي تقول في الرحلة الأصعب:« كانت الساحة الأدبية في الضفة والقطاع قد شهدت في السنتين الأولى والثانية من الاحتلال فراغا أدبيا وثقافيا رهيبا بفعل غياب المؤسسات الوطنية والكوادر الثقافية، ناهيك عن غياب الصحافة المحلية والمجلات الصادرة عن البلاد العربية... » (طوقان، 1990، ص 25)

ولكن فدوى طوقان لا تنقل للقارئ هذه الحالة الأدبية المؤقتة في سلبية واستسلام، وإنما تنقل معها بذرة المقاومة والمتمثلة في الحرص على القراءة والكتابة والحفاظ على اللغة العربية رابطا قوميا ووطنيا، بالإضافة إلى العمل على نسخ الكتب وتدوينها وتداولها والسعي وراءها، وما شعراء وأدباء فلسطين

المعاصرين إلا دليل على الوجه الآخر المنير لفعل المقاومة (المعتصم، 2007، ص73)

وقد أدركت هذه الشاعرة كما كل المثقفين في بلادها أن ما وصلت إليه حال الأدب والثقافة في تلك المرحلة من تاريخ فلسطين الحديث إنما هو نتيجة مخططات جهنمية تهدف إلى رسم صورة سيئة عن الفلسطيني للعالم كله، بالإضافة إلى محاولات تجهيله لإرغامه على الرضوخ، وفي هذا تقول: « لقد كانت الأقليات العربية التي بقيت متجذرة في أرضها كشجر الزيتون الفلسطيني منقطعة انقطاعا تاما عن مواكبة الحركات الأدبية والمعطيات الفكرية في البلاد العربية، فلم تكن المطبوعات العربية على مختلف أنواعها واتجاهاتها لتجد لها منفذا منه إلى أولئك الظامئين المتعطشين إليها؛ فإذا أتيح لأحدهم الوقوع على كتاب عربي غمرهم الفرح، وأخذوا يتناوبون على قراءته ونسخه واحدا بعد الآخر، وكأنما وقعوا على كنز...» (طوقان، 1990، ص 27).

لقد حملت سيرة فدوى الذاتية رسالة ثقافية، ونقلت واقعا أدبيا وأرخت لمرحلة مهمة من تاريخ الشعر والأدب في فلسطين والعالم العربي، كما استطاعت من خلال هذا النص الأوتوبيوغرافي الأدبي والثقافي أن تنقل انتفاضتها ورفضها وكل الفلسطينيين للاحتلال من خلال اتخاذ الأدب والشعر وسيلة للدفاع عن وحدة التراب والحق في الكرامة. ومن بين القصائد التي تحدثت عنها والتي تصرخ بها في وجه الاحتلال، وتفضح فيها ظلمه وجبروته، وقد أثارت ضجة كبيرة تلك التي عنوانها : آهات أمام شباك التصاريح:

« ليت للبراق عينا
آه يا ذل الإسار
حنظلا صرت، مذاقي قاتل، حقدي رهيب
موغل حتى القرار
صخرة قلبي، كبريت وفوارة نار
ألف "هند" تحت جلدي
جوع حقدي
فاغرفاه، سوى أكبادهم لا
يشبع الجوع الذي استوطن جلدي

آه! يا حقدي الرهيب المستثار

قتلوا الحب بأعماقي، أحالوا

في عروقي الدم غسلينا وقار! » (طوقان، 1990، ص 71)

هكذا تصبح سيرة الأديب بتفاصيلها الفكرية والثقافية والأدبية والجامعة للذكريات بتواريخها وتأثيرها وفعاليتها، تحقق نصا أدبيا شاملا ومتنوعا في الآن نفسه.

3- خصوصيات التشكيل الفني في رواية السيرة الذاتية:

ليس أدنى إلى المنطق من اعتبار السيرة الذاتية جنسا أدبيا قائما بذاته، وفنا سرديا متميزا، له مقوماته الفنية الخاصة، فالرواية الأوتوبيوغرافية فضلا عن كونها تجربة إنسانية ذاتية، فهي نوع من القلق الفني في نفس صاحبها يكبر تدريجيا إلى أن يخرج في شكل تجربة فنية ناضجة.

ولقد أكد محمد الباردي على فنية السيرة الذاتية من خلال توافر عنصر السرد فيها حيث يقول:« إن السيرة الذاتية ليست إلا شكلا من أشكال السرد.وككل أشكال السرد للسيرة الذاتية مؤلف يكتبها وسارد يسردها وقارئ فضولي يقرأها، ثم مقام سردي ومقام كتابي وما تتميز به السيرة الذاتية هو هذا الالتباس القائم بين المقامين» (الباردي، 2008، ص 111)

ويضيف هذا الباحث مؤكدا على خصوصية السرد في هذا النوع بأن السارد في السرد الأوتوبيوغرافي نظريا ليس كائنا ورقيا من صنع المؤلف بل هو كائن انطولوجي حقيقي هو المؤلف ذاته، وهذا المؤلف يتحول إلى سارد لأنه سيخضع مروياته لمقتضيات الفن والكتابة حتى يصل إلى مخاطبه (الباردي، 2008، ص 111).

إضافة إلى طبيعة السرد الخاصة في رواية السيرة الذاتية فإن الصياغات الأسلوبية وتقنيات السرد الروائي المعروفة في فن الرواية تؤدي دورا أساسا في تشكل هذا النوع من الكتابة.

ويرى عبد الله إبراهيم أن ما تختص به الكتابة السير ذاتية على مستوى التشكيل الإبداعي هو كون جميع العناصر الفنية والمكونات السردية

تتصل بالذات بوصفها المرجعية الأساسية لمادة النص حيث يقول: «... فكل العناصر الفنية، والمكونات السردية تتصل بتلك الذات، ومع أن درجات الاتصال تتباين بين نص وآخر، فإنه لا يمكن الحديث عن انفصال كامل... » (إبراهيم، 2005، ص 692)

ويؤكد هذا الناقد على وجود الرابط الفني الذي يصل المكونات السردية بالذات بذكره كتاب "أصداء السيرة الذاتية" لنجيب محفوظ أنموذجا يمثل أقصى ما يندرج تحت مقولة الانفصال؛ ويقصد بذلك أن العلاقات بين الذات ومكونات النص الفنية تترتب على نحو غير مباشر في هذا النص (إبراهيم، 2005، ص 692)، فرغم أنها أي هذه العلاقات تبدو ضعيفة إلا أنها موجودة لا يمكن إنكارها أو إغفالها بأية حال من الأحوال.

إن البحث في عناصر التشكيل الفنية والمكونات السردية في النص الروائي الأوتوبيوغرافي يثير بعض المسائل المتعلقة بتقنيات السرد الروائي، وجملة من القضايا النقدية المرتبطة بالنص وعناصره الداخلية ومقوماته الخارجية وهذا ما يدعو إلى طرح السؤال:« ما هي المسائل النقدية، والخصائص الفنية التي تميز الكتابة السردية السير ذاتية عن غيرها من الأجناس السردية الأخرى؟

إن قضية التشكيل المتعلقة بالنص السير ذاتي متعددة وهي جديرة بأن يخصص لها بحث مستقل يتعمق في دراسة تفاصيلها وخصوصياتها وإشكالاتها، ونذكر من أهم هذه المسائل:

أ- مسالة المقام السردي؛ إذ في النص السير الذاتي يكون المتلقي إزاء مقامين هما: مقام السرد ومقام الكتابة، وهذا الإشكال يتعلق بقضية توظيف الضمير في السرد، أو صوت السارد، وقد فصل فيها محمد الباردي من خلال نماذج تختلف فيها مقامات السرد بين الضمنية والصريحة، إضافة إلى التموقع الزماني للمقام، أي زمن المقام السردي ومكانه بالقياس إلى السيرة الذاتية التي تروى، ليصل الباحث إلى نتيجة مهمة مفادها أننا أمام النص السير ذاتي نكون إزاء نمطين من السرد لا ثالث لهما وهما السرد اللاحق والسرد المتواقت (الباردي، 2008، ص 121).

ب- مشكلة ترتيب المادة السردية وطرائق عرضها، وكيفيات ظهورها حيث أضحى التساؤل عن طبيعة ترتيب الأحداث وانتظامها ومدى تهشيم الزمن السردي من أهم المباحث التي نالت اهتمام الدارسين والنقاد لأنه وكما يقول البارودي: « لا نجد اتفاقا كاملا بين كتاب السيرة الذاتية على كيفية ترتيب المرويات وأسلوبه» (البارودي، 2008، ص 127) ذلك أن بعض الخطابات الروائية السير ذاتية تعتمد الترتيب الزمني للأحداث حسب تسلسلها، بينما لا تخضع مرويات أوتوبيوغرافية أخرى لهذا التتابع الحدثي مخترقة التسلسل الزمني وترتيب الأحداث.

ج- تأخذ الحبكة الأدبية شكلا خاصا إلى حد ما في الرواية السير ذاتية فرغم اهتمام المؤلف بسير الأحداث المؤلمة غالبا فإنه يتوقف عنها ليذكر بعض المواقف بأدق تفاصيلها، إذ لا يكتفي بذكر الأحداث بل يضمنها الأفكار والانطباعات التي صاحبت تلك الأحداث وبالنظر إلى تعريف الحبكة إذ هي: « تنظيم الأحداث» (القاضي، 2010، ص141)،وحسب أرسطو، هي أيضا:« انتقاء الأحداث والأعمال المروية وتنظيمها، وهو ما يجعل من المادة المروية حكاية موحدة تامة لها بداية ووسط ونهاية» (القاضي، 2010، ص 141).

إن الحبكة في النص السير ذاتي تتحقق تلقائيا، حيث يتم إخضاع التعاقب الزمني للأحداث لرابط منطقي؛ بمعنى أن الطبيعة المنطقية تلح على تنظيم الأحداث، وتغيب المصادفة في ذلك، وهو ما ذكره ريكور (1983) في حديثه عن فكرة الكل في الحكاية، والتي يجب أن تكون تصويرا لحدث واحد يشكل كلا ... (القاضي، 2010، ص 141).

د- لقد أشار عدد من النقاد إلى مسألة فنية مهمة على مستوى التشكيل في رواية السيرة الذاتية تحصل أثناء السرد وهي ظاهرة التبئير، التي تأخذ خصوصيتها في النص الأوتوبيوغرافي من كون الذات في السيرة الذاتية هي في الوقت نفسه ذات ساردة وذات موضوع، ونظرا لكون الذات الموضوع في الغالب لا تتجاوز مرحلة الطفولة أو الشباب الأول، والسارد عندما يروي يكون في موقع زمني متقدم كثيرا على زمن التجربة التي عاشها الأنا الموضوع، فإن الحاصل هو ما أسماه ج.جينات بالتبئير الداخلي، حيث يظهر السارد أعلم من الشخصية(الذات

الموضوع)، وأكثر منها إدراكا، وأقدر منها على الفهم، لأنه في موقع من الفهم والإدراك أوسع من الموقع الذي كانت فيه الأنا الموضوع، وبذلك يتيح لنفسه أن يرى نفسه في مرحلة الطفولة ومرحلة التجربة، بعين ليست هي عين الذات الموضوع، وبالتالي يتدخل يبرر كل تلك المشاهدات والتحاليل التي يرويها (الباردي، 2008، ص 144)، وهو ما حصل في أغلب الروايات السير ذاتية إن لم نقل في كلها، كما في "الخبز الحافي"، حيث يتدخل محمد شكري (السارد) ليبرر أفعال محمد الطفل (الذات الموضوع)، ويصور إتيانه لعديد الجرائم الأخلاقية بصورة المدفوع إلى ذلك قهريا بحكم الظروف القاسية، إلى درجة أن (الذات الموضوع) تظهر مبرأة من كل خطإ، غير مسؤولة عن اختياراتها وما تمارسه من أفعال مشينة، وهذا التبئير الحاصل في نص "الخبز الحافي" أوقع بعض الدارسين في محاولات التأويل الكثيرة، يأتي في مقدمتها التساؤل عن سبب إغفال محمد شكري الجوانب المشرقة في حياة الطفل محمد وأسرته، وهو ما يفسر عند البعض على أنه قد يكون سببا منه في دفع القارئ على قبول ما قام به من أفعال مشينة منافية وبعيدة عن الأخلاق.

كما نلاحظ هذه الظاهرة (التبئير الداخلي) أيضا في "الأيام" عندما يقول طه حسين مثلا: في هذا الأسبوع تعلم الصبي الاحتياط في اللّفظ، وتعلم أن من الخطإ والحمق الاطمئنان إلى وعد الرجال، وما يأخذون أنفسهم به من عهد، ألم يكن الشيخ قد أقسم أن لا يعود الصبي إلى الكتّاب أبدا وها هو قد عاد وأي فرق بين الشيخ يقسم ويحنث، وبين سيدنا يرسل الطلاق والأيمان إرسالا وهو يعلم أنه كاذب وهؤلاء الصبيان يتحدثون إليه فيشتمون له الفقيه والعريف ويغرونه بشتمهما، حتى إذا ظفروا منه بذلك تقربوا به إلى الرجلين وابتغوا به إليهما الوسيلة » (حسين، د/ت، ص 66).

كيف لطفل في التاسعة أو أكثر بقليل أن يفهم مثل هذه التصرفات، ويحتاط منها وينبذها بهذا الوعي وهذا الإدراك لما يصدر عن شيوخه من أفعال وردود فعل متناقضة وغير متوازنة؟ إن طه حسين (المؤلف) بهذا يضيق المسافة بين السارد والذات الموضوع إلى حد بعيد.

هـ- ظاهرة ازدواجية الزمن في النص الأوتوبيوغرافي تصبح ضرورة خاصة في حال التباعد بين صوت السارد وصوت الشخصية الموضوع والذي يصل حد الانفصام، فالسارد يروي في زمن الحاضر تجربة عاشها في زمن مضى، وهذا ما يؤكد ظاهرة التبئير، وكذا ظاهرة الرؤية المصاحبة والرؤية

من الخلف وما ينتج عنهما من تحويل رؤيوي. وهي ظواهر تشتغل داخل النص السير ذاتي اشتغالا مخصوصا يميز المحكي الأوتوبيوغرافي (الباردي، 2008، ص 162).

إن هذه قضايا التشكيل هذه المرتبطة بالخطاب الروائي السير ذاتي، وغيرها من المسائل والإشكالات الفنية تؤكد على أن الكتابة الأوتوبيوغرافية عمل فني إنشائي سردي يحيلنا على خطاب أدبي متميز ومخصوص بتقنيات ومكونات سردية ومقومات أسلوبية وفنية مهمة للغاية.

وليس لنا أن نغفل في موضوع التشكيل في الكتابة السير ذاتية جانبا مهما يعكس قدرا كبيرا من القيمة الأدبية و الجمالية لهذا النوع من الإبداع، والمتمثل في مكونات النص ومقوماته الفنية، و لعل أكثرها تأثيرا وبروزا في النص السير ذاتي نذكر اللغة، المكان، الزمان، الحوار، الوصف، وغيرها.

4- خاتمة:

– حظيت الرواية السير ذاتية، باهتمام كبير من طرف النقاد والدارسين، وذلك بسبب تشكلها من خلال بعدين أساسيين بعد ثقافي يهتم بنقل سياق علمي وفكري وثقافي، وآخر أدبي يعبر عن هذه المسيرة الفكرية والثقافية بنوع من النسقية.

– تمثل فدوى طوقان أحد أبرز الكاتبات اللواتي اتخذن من إبداعهن وسيلة للبوح والمكاشفة بواقع حياتي يحيل على ذاتها من خلال استحضارها لواقعها الثقافي والعلمي والأدبي.

– اتخذت فدوى طوقان من سردها الذاتي قالبا معبرا عن نسق أنثوي يبوح بمعاناة أنثوية في ظل سلطة ذكورية، تسعى إلى تهميشها وهدمها.

– يمثل السرد الأوتوبيوغرافي عملا أدبيا إنشائيا، يعكس مقومات أسلوبية ويتميز بتقنيات سردية خاصة.

– يرتكز النص الروائي السير ذاتي على مكونات تحيل على خصوصيته التشكيلية، ومقوماته الفنية، المتمثلة في: اللغة، الزمن، المكان، الحوار، الوصف.

5– قائمة المراجع:

– تهاني عبد الفتاح شاكر. (2002). *السيرة الذاتية في الأدب العربي*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

– طه حسين. (د/ت). *الأيام*. د/م: دار المعارف.

–عبد الله إبراهيم. (2005). *موسوعة السرد العربي* . بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر

– فدوى طوقان. (1990). *رحلة جبلية*. عمان: دار الثقافة الجديدة.

– محمد الباردي. (2008). *عندما تتكلم الذات*. قابس: مركز الرواية العربية .

– محمد القاضي. (2010). *معجم السرديات*. الرابطة الوطنية للناشرين المثقفين.

– محمد المعتصم. (2007). *خطاب الذات في الأدب العربي*. الرباط: منشورات دار الأمان .